المنحى القصصي في شعر الرندي

أ.م.د. أفراح علي عثمان
dr.afrahali@colang.uobaghdad.edu.iq
جامعة بغداد/ كلية اللغات-شعبة التقويم اللغوي

الملخص

كان أول ظهور للقصة على شكل أخبار تناقلتها العرب فيما بينهم في أوقات حديثهم وسمرهم وتطورت فيما بعد فظهرت فيها أنواع عدة منها القصة الشعرية والتي تطورت من نثرية الى شعرية وفيها يحكي الشاعر قصته كاملة دون التطرق إلى عناصر القصة الصحيحة واتخذ البحث المنحى القصصي لشعر الرندي الذي تقصى من خلاله الكشف عن حالته النفسية في الأشعار التي قالها من غزل ورثاء وزهد، فقد كان الشاعر صادقاً بعيداً عن التكسب سيما في رثاء مدن الأندلس بصورة بليغة قريبة للواقع سواء بقصائده الطوال أو القصار، فقد نجح الشاعر في توظيف اللغة توظيفاً سليماً فجاءت سلسة بسيطة بعيدة عن التعقيد والتكلف.

الكلمات المفتاحية: قصائد، قصة شعرية، الرندي، رثاء، الأندلس.

The Narrative Approach in Al-Randi's Poetry

Assist. Prof. Afrah Ali Othman (Ph.D.)
University of Baghdad/College of Languages
Linguistic Evaluation Division

Abstract

The first appearance of the story was in the form of news that the Arabs passed on to each other during their conversations and evening chats. After that, several types appeared, including the poetic story. Researchers took the narrative model of Al-Randi's poetry, and learned from it about his psychological state through the poems that he said, of love, elegy, and asceticism.

The research was divided into an introduction, which included a definition of the poet's life, then two sections: the first was on the poet's short pieces and the second was on the poet's long poems.

The poet has proven his ability and mastery of language, whether in love poetry, elegy, or asceticism. Al-Randi excelled in the subject of

asceticism through his poems, thinking about God Almighty and the Last Day. His style was smooth, beautiful, clear, and close to simplicity, not forced, but sincere in feeling and emotion.

Keywords: poems, poetic story, Al-Randi, elegy, Andalusia.

المقدمة

الأدب هو مرآة الحياة، والشاعر هو الذي يعكس هذه المرآة على الواقع ليترجم لقضايا عدة ممكن أن تتواجد داخل كل منا دون أن نجد طريقاً لتعبير عنها، فيأتي الشاعر ويترجم بشعره ما مكنون داخل أنفسنا ويتخذ لعمله هذا طرقاً عدة، والمنحى القصصي هو مجموعة من الأحداث سواء كان بالطريقة النثرية أم بالطريقة الشعرية[١] لأهداف عدة منها تثقيفية، أو لأخذ العبرة والعظة.

ينقل بها الشاعر المتلقي من واقعة الذي يعيش فيه إلى أحداثها ليكون واحداً منها. من هنا جاءت دراستنا للمنحى القصصي في شعر الرندي لما تمتع به الشاعر من قدرة على وصف وسرد الأحداث بطريقة شعرية جميلة تضمنت أغراض شعره من غزل وحكمة وزهد ورثاء.

فقسم البحث على تمهيد، تضمن تعريف بحياة الشاعر، ثم مبحثين الأول كان في المقطوعات القصار للشاعر والثاني كان في القصائد الطويلة التي تتحدث عن موضوع واحد وقد أبدع الشاعر كثيراً فيها.

تمهيد

تعريف الرندي:

هو صالح بن أبي الحسن بن يزيد بن صالح بن موسى بن أبي القاسم من أهل رنده ويكنى أبا الطيب[٢].

ويكنى فضلاً عن أبي الطيب بـ (أبو محمد) و(أبو البقاء) إلا أن كنيته أبو البقاء شاعت وعرف بها في المشرق والمغرب سيما بعد أن ذكر المقري تلك الكنية في كتابه، ويرجح بأنه كان الأشهر في زمانه[٣].

وينتمي إلى مدينة رنده وهي من "مدن تاكونا وهي مدينة قديمة بها آثار كثيرة، على نهر ينسب إليها"[٤].

ولد سنة (٦٠١) وتوفي سنة (٦٨٤هـ)[٥].

وتشح كتب التراجم في التعريف عن أسرته وأولاده إلا أنها تذكر أن له آبناً يدعى أبا بكر قد توفي صغيراً بعمر (٨ سنوات) وقد رثاه والده[٦]. تمكن بفضل أخلاقه ودينه من أن يحقق له مكانة عالية في عصره لفقهه، وحفظه للحديث كما أنه برع في نظم الكلام ومنثوره مجيداً في المدح والغزل والزهد والوصف[٧].

وكان كريم الأخلاق، حسن السمعة فقد "كان في الجملة معدوداً من أهل الخير، وذوي الفضل والدين"[٨].

وكان "بارع التصرف في منظوم الكلام ومنثورة"[٩].

وله مؤلفات عدة منها:

١- روضة الإنس ونزهة النفس.

٢- الوافي في نظم القوافي.

٣- ديوان شعر مفقود إلا أن له أقوالاً شعرية مبثوثة في كتبه وكتب التراجم.

٤- كتاب الفرائض.

٥- له مقالات وهي من المفقودات.

٦- تأليف في العروض.

٧- جزء على حديث جبريل.

٨- وله قصائد زهدية أيضاً[١٠].

المبحث الأول

المقطوعات

القطع في اللغة: هو "إبانة بعض أجزاء الجرم من بعض فصلاً والقطعة الطائفة منه"[١١] وهي الأبيات القصار فكل قصير مقطع[١٢] والمقطعات من الشعر قصاره وأراجيزه، سميت الأراجيز مقطعات لقصرها[١٣].

وأوليات الشعر العربي ما هي إلا مقطعات قيل "إنما يقول الرجل البيتين أو الثلاثة إذا خاصم أو شاتم أو فاخر"[١٤].

واختلف في عدد المقطعات منهم من عدها ثلاثة أبيات أو عشرة أو خمسة عشر، قال ابن جني: "إن العادة أن يسمي ما كان على ثلاثة أبيات أو عشرة أو خمسة عشر قطعة، فأما ما زاد على ذلك فإنما تسمية العرب قصيدة"[١٥].

وقد هيأت لظهور المقطعات أمور منها أن "التراث الضخم من الشعر القديم الذي استمر في رواجه، كان قد غدا عبئاً ثقيلاً على عاتق المتأدب فاضطر الى الاقتصار منه على أشهر روائعه وأصلحها للاقتباس وانحطاط القصيدة على هذا النحو أفسح المجال لبروز القطعة الشعرية"[١٦].

وتحقق المقطعات وحدة تكاملية للموضوع، "وأن الشعر العربي القديم لم يكن كله على غرار القصيدة الطويلة المتعددة الأغراض بل كان هناك من القصائد القصار والمقطعات ما تحقق فيه وحدة شعورية"[١٧].

ففي قصة قصيرة يروي لنا زوال الدنيا ورخصها ويحث على الزهد فيها يقول[١٨]:

دع الغرور فما للخلد من سبب ولا قرار بدار اللهو واللعب

يا بانياً لقصور سوف يتركها لمن سيملكها قهراً بلا تعب

وطالباً لضروب المال يحملها لمن سيأخذها عنواً بلا طلب

وغافلاً أبدا عما يراد به أسرفت في غلواء الغي فانتسب

أما ترى الدهر لا يبقي على أحد أين الملوك وما صانوه في الحجب

هو الحمام فكن منه على حذر ويح المسوق أن أرى ولم ينب

يا ابن الشباب أفق من سكر خمرته كم من فتى [فاروق][*] الدنيا ولم يشب

ويا أخا الشيب ماذا أنت منتظر خذ في الرحيل فقد نوديت من كثب

لا يترك الدهر مملوكاً ولا ملكاً ولا يبالي الردى بالجحفل اللجب

في هذه المقطوعة يروي الشاعر قصة قصيرة تختزل حكمة بليغة يدركها كل إنسان ولكن بعد فوات الأوان لكثير منهم وهي السعي وراء الدنيا بجمع المال وبناء القصور وحرمانه الكثير من متاع الحياة على حساب نفسه، ليتوصل أخيراً أن كل ما جنى وتعب به ليس له بل لغيره (لمن سيملكها قهراً بلا تعب). يدرك هذه الحقيقه بعد أن استنفذ قوته وصحته لغيره ليتمنى عودة الزمن الذي فاته ليعوض ما فات.

ففي البيت السابع والثامن يعقد الشاعر مفارقة جميلة بين من مات شاباً وبين كبيراً لم يمت. وهي إن الإنسان في شبابه يسعى إلى ملذاته بكل أنواعها على أمل الرجوع إلى الله تعالى في الكبر فيدق الشاعر ناقوس الصحوة له أن أفق من أوهامك فكم من شاب أدركه الموت دون توبة وعلى الضفة الثانية منبهاً ذلك الذي مضى به قطار العمر، ماذا تنتظر؟ أي عده أعددت لرحلتك فقد وصل القطار الى محطتك (نوديت من كثب). فضلاً عما تحمله من معنى الموت والحياة والفناء، فالحياة زائلة والعيش فيها زائل وكل متاع فيها زائل لا محالة.

ويبقى موضوع الزهد في الدنيا محوراً لقصصه قائلاً[١٩]:

إذا كان أمر الله للمرء طالباً فقد هان مطلوب وقد عز طالب

ألا إنما الدنيا خيال وأهلها بها عرض والدهر بالكل لاعب

ألا أيها البطال كم أنت غافل كأنك عن عذب المشارب غائب

ألا فانظر الدنيا بعين بصيرة فللترك يا مغرور ما أنت كاسب

ألم ترَ أن الموت أكبر شاهد على أنه لا يغلب الله غالب

ففي هذه المقطوعة يروي قصة قصيرة منبهاً من يغفل عن الآخرة لحساب الدنيا أن لقاء الله أمر محتوم مهما طال الزمان فلا بد من الرجوع إليه فالحقيقة مهما طالت إلا أنها آتية في النهاية لكل مخلوق على هذه الارض.

وتظهر روعة هذه المقطوعة من البيت الأول ترافقها موسيقى عذبة خلال جناسه بين (طالباً وطالب) في نهاية الصدر والعجز من البيت الاول مؤكداً العمل على إرادة الله سبحانه وتعالى.

ومن الزهد إلى الحب واللوع فيه يقول(٢٠):

كم دعينا لغيركم فأبينا وضحكتم تدللاً فيكفينا

يا قساة القلوب رفقاً علينا ما خلقنا بين الأنام حديدا

يا قدود الغصون عن التثني ما لكم في ذائباً بالتجني

قد قنعنا حتى نسينا التمني وخضعنا حتى بسطنا الخدودا

كم شكونا إليكم لو رحمتم وعلمتم من حولنا ما علمتم

كل يوم نزيد حباً وأنتم لا تزيدون فيه إلا صدودا

آه من ضيعة القلوب إليكم حسبنا أن نفر منكم إليكم

ما لنا في الهوى اختيار عليكم غاية الصبا أن يموت شهيداً

قدر الله أن تكونوا ملوكاً وقضى أن نكون نحن عبيدا

وبطريقة السرد يروي حكايته مع محبوبته واصفاً حبه وإخلاصه رغم قسوتها ودلالها عليه وتجاهلها لشكواه، ولكنه يرى ذلك الحب أمراً محتوماً عليه فهو مقدر من الله لا خيار له فيه.

ويبقى قدر الرندي العذاب في الحب وصد المحبوب عنه وجرح فؤاده وهجره. يقول(٢١):

يا سالبَ القَلبِ مِنّي عِندَما رَمَقا لَم يُبقِ حُبُّكَ لِي صَبراً وَلا رَمَقا

لا تَسألِ اليَومَ عَمّا كابدت كَبدي لَيتَ الفِراقَ وَلَيتَ الحُبَّ ما خُلِقا

ما بِاختياريَ ذُقتُ الحبَّ ثانيةً وَإِنّما شاءت الأَقدارُ فاتّفَقا

وَكنتُ في كَلَفي الداعي إِلى تَلَفي مِثلَ الفراشِ أَحَبَّ النارَ فَاحتَرَقا

يا مَن تَجَلّى إِلى سرّي فَصيّرني دَكّاً وَهزَّ فُؤادي عِندَما صعقا

اِنظُر إليَّ فَإنَّ النَفس قَد تَلِفت وَارفُق عَليَّ إنَّ الرُوحَ قَد زهِقا

ينتقل الشاعر إلى قصة قصيرة يشكو بها حبه بأسلوب أدبي غير عادي للغة ساعياً إلى طرح مشكلته بفاعلية كبيرة بطريقة الإبلاغ ليكشف عما بداخله لموقف معين فنحن لا نعرف عنه شيئاً غير حدود ما يخبرنا به عن حاله الذي يتجلى فيه ألمه بلوعة في قوله:

اِنظُر إليَّ فَإنَّ النَفس قَد تَلِفت رفقاً عَليَّ إنَّ الرُوحَ قَد زهِقا

فيظهر خلجات نفسه وما يعانيه من ألم الفراق ويطلب من محبوبه العطف عليه ولو بالقليل ففيه فرج لهمومه وأحزانه.

ويعيش قصة حب جميلة معبراً عن نفسيته المليئة بالحب والأشتياق لمحبوبه الذي يكثر الصد والهجر ويحرمه وصله يقول[٢٢]:

قطع قلبي بصده قطعاً واها له حزني وما نفعا

وغرني أولاً بوصلته وعندما لذ وصاله قطعا

ومر عني لما شكوت له كأنه ما رأى ولا سمعا

واكبدي لم يفده واكبدي لم يترك الدهرفيه لي طعما

يا ليت قلبي الذي وهبت له يرجع لي اليوم كيف ما رجعا

يصف الرندي حاله وحال كل عاشق من إحساس بالحب، وصدق المشاعر والولوع في المحب الذي يحاول التلاعب بمشاعره بين الحين والآخر:

وغرني أولاً بوصلته وعندما لذ وصاله قطعا

فعندما علم بتعلقه فيه وحبه له تمنع عنه ومر عن شكواه وكأنه لم يرَ أو يسمع منتهياً بأمنية كل محبوب عذبه الحب بأن يعود له قلبه وينتهي عن حب من لم يرحمه.

يا ليت قلبي الذي وهبت له يرجع لي اليوم كيف ما رجعا

وتطالعنا مقطوعة من قصيدة يسرد لنا بها أحوال من غاب عن بلده قائلاً[٢٣]:

غريب كلما يلقى غريب فلا وطن لديه ولا حبيب

تذكر أصله فبكى اشتياقاً وليس غريباً أم يبكي غريب

تذكر به الشباب فشق قلبي ألم ترَ كيف تشق القلوب

على زمن الصبا فليبكِ مثلي فما زمن الصبا إلا عجيب

ويسترسل في وصف بلاده لينقل لنا مشهداً آخر من مشاهد الحكمة يقول:

ألا إنا خلقنا في زمان يشيب بهوله من لا يشيب

وقد لذ الحمام وطاب عندي وعيش لا يلذ ولا يطيب

لحي الله الضرورة فهي بلوة تهين الحر والبلوى ضروب

رأيت المال يستر كل عيب ولا تخفى مع الفقر العيوب

وفقد المال في التحقيق عندي كفقد الروح ذا من ذا قريب

ومن الحقائق المتفق عليها أن المال يستر كل عيب ويخفي كل حرام عكس الفقر الذي لا يستطيع صاحبه درئ أي عملاً عنه يريد إخفائه، فلهذا على الإنسان أن يثق بأهمية المال لا سيما إن كان في الغربة، وقد حيا الشاعر المصائب التي تلحق الفرد ليغربل بها بين أصحاب المواقف عن غيرهم، ولا ننسى الموسيقى الجميلة، والنغم الساحر من حيث مطابقته بين (الشيب ولا يشيب) مبيناً حقيقة هذا الزمان الذي يشيب لمصائبه الصغير قبل الكبير.

كما تظهر براعة الشاعر وتمكنه من الشعر باستخدامه (الواو) قبل الروي[٢٤] ويستمر في سرد قصته:

قد أجهدت نفسي في اجتهاد وما أن كل مجتهد نصيب

وقد تجري الأمور على قياس ولو تجري لعاش بها اللبيب

وكان العقل للدنيا عدو فما يقضي بها أرباً أريب

ليختم بحقيقة لا جدل فيها[٢٥]:

إذا لم يرزق الإنسان بختاً فما حسناته إلا ذنوب

ويقول على الحوار[٢٦]:

ولم أر كالحب يا عاذلي عذاباً ولكنه يعذب

ولا كالحبيب وخذلانه يزيد صدوداً إذا يرغب

يرى أن ذنبي حبي له بعيشك قل لي: من المذنب

ولست بسال كما يدعي ولا من حديد كما يحسب

إذا كنت أرضى بما شاعه فيا رب ما له يغضب

إذا كان قلبي جنى ما جنى فيا لهف نفسي من أطلب

وإن كان هذا بحكم القضا فيا شعري من أعتب

يشكو من عذاب الحب الذي لم يرَ غيره عذاباً ولا كخذلان الحبيب له بكلمات غزلية جميلة معللاً ذلك بحبه الشديد له وتمنع محبوبه عنه والقضاء لقدر الله.

وأصعب ما سرد لنا قصته في دفن ولده قائلاً[٢٧]:

يا قلب صبراً لما تلقى ويا كبدي فإنما خلق الإنسان في كبد

هذا الحمام قضاء لا مرد له وهكذا الدهر لا يبقى على أحد

ما أصعب الفقد للأحباب يا أسفي وما أمر وما أشجى فرقة الولد

أودعته الترب مغلوباً على فيا لهفي وضعت فؤادي في الثرى بيدي

أودعته ولو أن الحال تسعدني لما جعلتُ له قبراً سوى كبدي

بني لم يبق فيك الدهر لي طعما يا قرة العين بل يا قطعة الكبد

حال الردى بين شخصينا ففرقنا وإنما حال بين الروح والجسد

لا تحسبن انصرافي عنك تسلية الله يعلم ما ذكراك في خلدي

لا تسأل الصب مثلي عن صبابته أن لم في غد وجدا فيعد غدا

يبدأ الشاعر بنداء قلبه طالباً منه الصبر على المصائب التي يلاقيها إلا أن الموت من الحقائق التي لا اعتراض عليها رغم الحزن التي تخلفها في قلب ونفس الإنسان، فكيف له السلو وقد أودع ابنه التراب بعد أن كان مكانه قلبه فأصعب فقد هو فقد الابن.

المبحث الثاني

القصائد

أصل (ق ص د) في كلام العرب "الاعتراف والتوجه والنهوض نحو الشيء على اعتدال كان ذلك أو جور هذا أصله في الحقيقة وإن كان يخص في بعض المواضع بقصد الاستقامة دون الميل"[٢٨].

ويرى القدماء وأكثر المعاصرين القصيدة هي مجموعة من الأبيات الشعرية التي تلتزم وزناً واحداً من أوزان الخليل بن أحمد الفراهيدي وكثير من القدماء.

قال ابن سلام: "وإنما قصدت القصائد دخول الشعر على عهد عبد المطلب وهاشم بن عبد مناف"[٢٩]. وقال: "كان أول من قصد القصائد وذكر الوقائع المهلهل بن ربيعة التغلبي في قتل أخيه كليب بن وائل[٣٠].

وقد اختلف في عدد أبياتها فقيل سبعة أو عشرة قال ابن رشيق: "إذاً بلغت الأبيات سبعة فهي قصيدة، ولهذا كان الإبطاء بعد سبعة غير معيب عند أحد من الناس ... ومن الناس من لا يعد القصيدة إلا ما بلغ العشرة وجاوزها ولو بيت واحد"[٣١].

ومن قصصه الطويلة قصيدة يرثي بها ولده أبا بكر بكلمات حزن وحسرة وألم وتفجع لما يعانيه من عظيم الفقد، فقد ولده فلذة كبده، ألم تعتصر له القلوب قبل العيون يقول[٣٢]:

بني أبا بكر بني أبا بكر وماذا عسى يغني التعلل بالذكر

ذهبت ذهاب الصبر على مكرها فو أسفا إلا التقاء إلى الحشر

فإن كنت نجماً راع منه أقوله فما لك لا تحيا ودمعي كالقطر

يبدأ بتكرار اسمه وكأنه يناديه ليوقظ نفسه وما عسى ذلك النداء الذي لا يسمعه فقد ذهب عنه (وعسى) أن تنفع (عسى) ليوم الحشر ولربما أراد أن ينظر المتلقي لما سيكشف عنه من تهويل ولما يريد أن يفصح عنه لحالته النفسية بشكل مباشر.

ومن شدة تفجعه يعود متسائلاً أن كنت نجماً أفل فلما لا تظهر مع الأنجم وإن كنت زهراً فلما لا تحيا من أدمعي فهي أعظم سقي لك.

ويعود للتكرار مرة أخرى مؤكداً مصابه:

محمد ما أشجى فراقك لوعة محمد ما أدهى مصابك من أمر

محمد في قلبي محمد في فمي لئن غاب عن عيني فما غاب عن فكري

ولما لا يبكيه وهو كالزهرة التي انضوت أمامه لم يستنشق عطرها

وما لي لا أبكي أساً وتوجعاً على ابن ثمان لم يؤخر إلى عشر

بعد أن كان يتمناه يكبر ويمشي أمامه شاباً يحيى به كلما رآه ولكن شاءت الأقدار وقد سلم لذلك القضاء بالحمد والشكر قائلاً:

وعهدي به ميتاً كتمثال فضة يذهبه وجدي بأدمعي الحمر

وعهدي به حياً متى ما نظرته نظرت إلى العلق النفيس من الدر

وعهدي به يمشي أمامي وإنما فؤادي الذي يمشي أمامي ولا أدري

.....

وضعت على قلبي يدي تألماً فخيل لي أني قبضت على الجمر

ولو أنني أنصفت مت لموته فكان بحكم الحب ميتين في قبر

وما لوعة الخنساء شقت صدارها وقدت جيوب الصبر حزناً عن صخر

ولا وجد هند والاسى قد أذابها فماتت كما يروى غراماً على بشر

بأعظم من وجدي عليه وإنما رجعت على حكم الضرورة للصبر

وسلمت فيه للقضاء وإنما يقابل حكم الله بالحمد والشكر

سلام عليه ما أمر فراقه وما أوحش الدنيا بفقد أبي بكر

وفي مرثية أخرى يسرد قصة موت زوجته وحبيبته بكلمات تعتصر القلب ألماً على فراقها فيجعل المتلقي يعيش اللحظة وكأنه حاضر الموقف يحس إحساسه ويحزن لحزنه على تلك الأيام الجميلة التي قضاها معها لكن هي المنية إذا جاءت تغير أحوال البشر يقول[٣٣]:

هي المنية لا تبقى على بشر فكف عن عبرات الوجد واعتبر

وسل من استهوت الدنيا له فقضى هل تم قط لها صفو بلا كدر

.....

إذا قضى الله أمراً لا مرد له فليس للعبد كالتسليم للقدر

ولكن الصب مغلوب بلوعته والصبر لا شك مشتق من الصبر

واحسرتا لفراق لا عزاء له ولوعة لم تدع مني ولم تذر

يا برهة كان فيها للمنى أمل ونزهة للهوى والسمع والبصر

مضت مضى الصبا عني ولا عوض ومن يقوم مقام الشمس والقمر

عهدي بالفتنا والأنس ينظمنا بطيبة العيش نظم السلك للدرر

روحين في جسد سرين في خلد كما تقابل أهل الخلد في السرر

متى رمى البين شخصينا ففرقنا كما يفرق بين العين والنظر

يا ليتني عندما حم الحمام بها قاسمتها كبدي قاسمتها عمري

ومن أعظم قصصه قصة يرثي بها بلاد الأندلس حين ضياعها فقد عاش مأساة الضياع دون إنقاذ لها ولأهلها يبدأ بالقول(٣٤):

لِكُلِّ شَيءٍ إِذا ما تَمّ نُقصانُ فَلا يُغَرَّ بِطيبِ العَيشِ إِنسانُ

هِيَ الأُمُورُ كَما شاهَدتُها دُوَلٌ مَن سَرّهُ زَمَن ساءَتهُ أَزمانُ

وَهَذِهِ الدارُ لا تُبقي عَلى أَحَدٍ وَلا يَدُومُ عَلى حالٍ لَها شانُ

فهذه الأندلس تضيع كما ضاع غيرها فلا يغر أحد بالعيش فمن سره زمان ساءته أزمان فلما لا يتعظ الأقوياء مع أن نهايتهم حتمية يقول:

يُمَزِّقُ الدَهرُ حَتماً كُلَّ سابِغَةٍ إِذا نَبَت مَشرَفِات وَخرصانُ

وَيَنتَضي كُلَّ سَيفٍ لِلفَناء وَلَو كانَ ابنَ ذي يَزَن وَالغِمد غمدانُ

أَينَ المُلوكُ ذَوو التيجانِ مِن يَمَنٍ وَأَينَ مِنهُم أَكالِيلٌ وَتيجَانُ

وَأَينَما ما شادَهُ شَدّادُ في إِرَمٍ؟ وَأينَما ساسَه في الفُرسِ ساسانُ

وَأَينَ ما حازَهُ قارونُ من ذَهَبٍ؟ وَأَينَ عادٌ وَشدّادٌ وَقَحطانُ

ويدخل دوامة تساؤلات مقلباً صفحات التاريخ ليصل في النهاية لجواب عن تساؤلاته:

أَتى عَلى الكُلِّ أَمرٌ لا مَرَدّ لَهُ حَتّى قَضوا فَكَأَنّ القَوم ما كانُوا

ويبقى التاريخ يسعف مخيلته لينتقي منه أجمل وأعظم العبر:

دارَ الزَمانُ عَلى دارا وَقاتِلِهِ وَأَمَّ كِسرى فَما آواهُ إِيوانُ

كَأَنَّما الصَعبُ لَم يَسهُل لَهُ سببٌ يَوماً وَلا مَلَكَ الدُنيا سُلَيمانُ

ويواصل الحديث ليتحدث عن نكبة الأندلس قائلاً:

دهى الجَزيرَة أَمرٌ لا عَزاءَ لَهُ هَوَى لَهُ أُحُدٌ وَانهَدَّ ثَهلانُ

أَصابَها العينُ في الإِسلامِ فارتزَئت حَتّى خَلَت مِنهُ أَقطارٌ وَبُلدانُ

فقد حدث في المدينة أموراً عظيمة وصابتها النكبات الواحدة تلو الأخرى وكأنما عين أصابت الإسلام فأضاعت بلادهم.

ثم يبدأ يتحسر على ضياع المدن وسقوطها بيد العدو بعد أن كانت آمنة مطمئنة:

فاسأل بَلَنسِيةً ما شَأنُ مرسِيَةٍ وَأَينَ شاطِبة أَم أَينَ جيّانُ

وَأَين قُرطُبة دارُ العُلُومِ فَكَم مِن عالِمٍ قَد سَما فِيها لَهُ شانُ

وَأَينَ حمص وَما تَحويهِ مِن نُزَهٍ وَنَهرُها العَذبُ فَيّاضٌ وَنقلانُ

قَوَاعد كُنَّ أَركانَ البِلادِ فَما عَسى البَقاءُ إِذا لَم تَبقَ أَركانُ

كما أنه يستنطق الجماد ويدعو بلسانه إلى الجهاد والنصرة بعد أن اختفت أصواتها بعد أن كانت تعلو بأصوات الآذان:

تَبكِي الحَنيفِيَّةُ البَيضَاءُ مِن أَسَفٍ كَما بَكى لِفِراقِ الإِلفِ هَيمَانُ

عَلى دِيارٍ منَ الإِسلامِ خالِيَةٍ قَد أَسلمت وَلَها بالكُفرِ عُمرانُ

حَيثُ المَساجِدُ قَد صارَت كَنائِس ما فيهِنَّ إِلّا نَواقِيسٌ وصلبانُ

حَتّى المَحاريبُ تَبكي وَهيَ جامِدَةٌ حَتّى المَنابِرُ ترثي وَهيَ عيدَانُ

ثم يبدأ بعد ذلك بالاستنجاد بالملوك وقبائل المغرب للنصرة:

يا أَيُّها المَلِكُ البَيضاءُ رايَتُهُ أَدرِك بِسَيفِكَ أَهلَ الكُفرِ لا كانوا

يا راكِبينَ عِتاق الخَيلِ ضامِرَةً كَأَنَّها في مَجالِ السَبقِ عقبانُ

وَحامِلينَ سُيُوفَ الهِندِ مُرهَفَةً كَأَنَّها في ظَلامِ النَقعِ نيرَانُ

وَرائعينَ وَراءَ البَحرِ في دعةٍ لَهُم بِأَوطانِهِم عِزٌّ وَسلطانُ

أَعِندكُم نَبَأ مِن أَهلِ أَندَلُسٍ فَقَد سَرى بِحَدِيثِ القَومِ رُكبَانُ

كَم يَستَغيثُ بِنو المُستَضعَفُينَ وَهُم أَسرى وَقَتلى فَما يَهتَزَّ إِنسانُ

ماذا التَقاطعُ في الإِسلامِ بَينَكُمُ وَأَنتُم يا عِبَادَ اللهِ إِخوَانُ

أَلا نُفوسٌ أَبيّاتٌ لَها هِمَمٌ؟ أَما عَلى الخَيرِ أَنصارٌ وَأَعوانُ

وبعد ذلك يسرد نكبة الأندلس قائلاً:

يا مَن لِذِلَّةِ قَوم بَعدَ عِزّهم أَحالَ حالَهُم كفرٌ وَطُغيانُ

بِالأَمسِ كانُوا مُلُوكاً فِي مَنازِلِهِم وَاليَومَ هُم في بِلادِ الكُفرِ عُبدانُ

فَلَو تَراهُم حَيارى لا دَلِيلَ لَهُم عَلَيهِم من ثيابِ الذُلِّ أَلوانُ

وَلَو رَأَيت بُكاهُم عِندَ بَيعهمُ لَهالَكَ الأَمرُ وَاستَهوَتكَ أَحزانُ

يختم الرندي قصته بأبشع وأمر الصور، صور ضياع الدين والعرض والشرف لطفلة بريئة، صور مؤلمة للضعف عن الدفاع عن المحرمات والشرف قائلاً:

يا رُبَّ أمٍّ وَطِفلٍ حيلَ بينهُما كَما تُفَرَّقُ أَرواحٌ وَأَبدانُ

وَطفلَة مِثلَ حُسنِ الشَمسِ إذ برزت كَأَنَّما هيَ ياقُوتٌ وَمُرجانُ

يَقُودُها العِلجُ لِلمَكروهِ مُكرَهَةً وَالعَينُ باكِيَةٌ وَالقَلبُ حَيرانُ

لِمثلِ هَذا يذوبُ القَلبُ مِن كَمَدٍ إن كانَ في القَلبِ إسلامٌ وَإيمانُ

وقد أبدع في رسم تلك الصور لاسيما في التشبيه بقوله: (كما تفرق أرواح وأبدان)، وفي صورة مأساوية للام التي انتزع منها طفلها مع أن التشبيه تضمن معنى أكبر مما في الصورة باستخدام أداة التشبيه الكاف[٣٥].

وبهذه المشاهد انتهت الأندلس وانتهى الإسلام، وقد أبدع الرندي في كل ذلك كما يقول شوقي ضيف أن القصيدة استصراخ أشبه بقطع من النار التي تلذع القلوب لذعاً[٣٦].

وقد كانت عاطفة الرندي في القصيدة "عاطفة صادقة حارة تلونها المشاعر الدينية"[٣٧].

لقد أجاد الرندي في قصيدته هذه عن صدق إحساسه وحبه لوطنه لقد بكى وطنه الضائع بدموع سخية وبإحساس حزين لم يكن متكلفاً بها أبداً و"لم يصدر عن عاطفته فحسب بل نجده يشعر بمشاعر كل الأندلسيين ويترجم عن ثورتهم الدفينة المكبوتة"[٣٨].

لقد كانت الحالة النفسية للرندي هي بوابة لانطلاق تلك القصيدة التي ضمت عدة موضوعات: الاعتبار بزوال (المدن)، وسقوط مدنها، ثم الجهاد إلى نصرتها، كل ذلك جاء بلغة مفعمة بالعاطفة الحزينة التي تؤثر في المتلقي.

الخاتمة:

وبعد هذه الدراسة للشاعر الرندي توصلنا إلى:

١- لم نجد في الكتب ترجمة موسعة لأهل الشاعر سوى بعض الأخبار في رثاء ابنه وزوجته، فلم نجد تفصيلات عن حياته وأولاده وزوجاته.

٢- أثبت الشاعر قدرته وتمكنه من اللغة بقصائده سواء كانت في الغزل أم الرثاء أم الحكمة والزهد.

٣- أبدع الرندي في موضوع الزهد عن طريق قصائده بالتفكير بالله تعالى وبالآخرة.

٤- بكى كثيراً على بلده الذي أثبت حبه له فبكاه ورثاه كثيراً.

٥- وقد أبدع الشاعر في نونيته بوصف الاندلس وبكاها بصدق معللاً حبه لوطنه.

٦- كان أسلوبه سلساً جميلاً واضحاً قريباً من السهولة غير متكلف صادق الإحساس والعاطفة.

٧- عبر الشاعر عن صدق عاطفته وإحساسه بالرثاء لاسيما في رثاء ابنه وزوجته وكذلك الأندلس.

هوامش البحث:

(١) ينظر: نشوء القصة تطورها، محمود تيمور، المطبعة السلفية، مصر، القاهرة، ٢٠١٦.

(٢) ينظر: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن محمد المقري التلمساني، تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد، ط١، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٤٩، ٤: ٤٨٦.

(٣) ينظر: أبو البقاء الرندي شاعر رثاء الأندلس، عمر رضوان الداية، ط٢، بيروت، ١٣٩٦هـ- ١٩٦٧م: ٣٥.

(٤) الروض المعطار في خبر الأقطار (صفحة جزيرة الأندلس) للحميري، تحقيق: ليفي بروفنسال، مصر، د. ت.

(٥) ينظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي، (ت: ٦٢٦هـ)، بيروت، ١٩٥٧م. ينظر: في الأدب الأندلسي، محمد رضوان الداية، ط١، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ٢٠٠٠م: ٣٥٧.

(٦) ينظر: أبو البقاء الرندي، حياته وشعره.

(٧) ينظر: تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ، ٦: ٢٨٦.

(٨) الإحاطة في أخبار غرناطة الذي الوزارتين لسان الدين ابن الخطيب، تحقيق: محمد عبدالله عثمان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٩٧٥م، ٣: ٣٦٠.

(٩) الذيل والتكملة، ابن عبدالملك المراكشي، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ٤: ١٣٧.

(١٠) ينظر: أبو البقاء الرندي: ٤٧-٤٨.

(١١) لسان العرب، مادة قطع.

(١٢) م. ن، مادة قطع.

(١٣) تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي: ٤٧٥/٥.

(١٤) الشعر والشعراء، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، دار صادر- بيروت، مطبعة بيريل، ١٩٠٢، ٦١٣/٣.

(١٥) تاج العروس، مادة قطع.

(١٦) دراسات في الأدب، جوستاف فون غريناوم: ١٤٥.

(١٧) الاتجاه الوطني في الشعر العربي المعاصر، د. عبد القادر القط، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط٢، ١٩٨١: ٣٢٦.

(١٨) شعر أبي البقاء الرندي (٦٠١- ٦٨٤هـ)، جمعه وحققه على أصول مخطوطة مطبوعة د. إنفاذ عطا الله محسن العاني.

(*) وردت [فاروق] وأعتقد فارق.

(١٩) شعر أبي البقاء الرندي: ٦٩٣.

(٢٠) شعر أبي البقاء الرندي: ٦٩٦.

(٢١) شعر أبي البقاء الرندي: ٧١٧.

(٢٢) شعر أبي البقاء: ٧١٥.

(٢٣) شعر أبي البقاء الرندي: ٦٨٧.

(٢٤) ينظر: الوافي في نظم القوافي، لأبي البقاء الرندي (النسخة المشرقية): ٨٠.

(٢٥) شعر أبي البقاء: ٦٨٧.

(٢٦) شعر أبي البقاء: ٦٨٩.

(٢٧) شعر أبي البقاء الرندي: ٦٩٩.

(٢٨) لسان العرب، مادة قصد.

(٢٩) طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمعي (ت: ٢٣١هـ)، شرح: محمود محمد شاعر، مطبعة المدني، المؤسسة العربية، مصر، القاهرة، ١٩٦٨م: ٢٦.

(٣٠) م. ن: ٣٩.

(٣١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق البغدادي، تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد، مطبعة حجازي، القاهرة، ط٦، ١٩٣٤م: ١/١٦٤.

(٣٢) شعر أبي البقاء الرندي: ٧٠٤.

(٣٣) أبو البقاء: ٧٠٦.

(٣٤) شعر أبو البقاء: ٧٣٥.

(٣٥) ينظر: قراءات في الشعر الاندلسي، الدكتور صلاح جرار، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠٠٩: ١٢٧.

(٣٦) فصول في الشعر ونقده، شوقي ضيف، منشورات دار المعارف، مصر، ١٩٧١، ص١٦٤.

(٣٧) الأدب الأندلسي في عصر الموحدين، حكمت علي الأوسي، طبعة الخانجي، مصر، ١٩٧٦: ١٤٨.

(٣٨) الأدب العربي في الأندلس، عبدالعزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٦: ٣٢٦.

المصادر والمراجع

١- أبو البقاء الرندي شاعر رثاء الأندلس، عمر رضوان الداية، ط٢، بيروت، ١٣٩٦هـ-١٩٦٧م.

٢- أبو البقاء الرندي، حياته وشعره.

٣- الاتجاه الوطني في الشعر العربي المعاصر، د. عبد القادر القط، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط٢، ١٩٨١.

٤- الإحاطة في أخبار غرناطة الذي الوزارتين لسان الدين ابن الخطيب، تحقيق: محمد عبدالله عثمان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٩٧٥م.

٥- الأدب الأندلسي في عصر الموحدين، حكمت علي الأوسي، طبعة الخانجي، مصر، ١٩٧٦.

٦- الأدب العربي في الأندلس، عبدالعزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٦.

٧- تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي، الجزء الخامس.

٨- تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ.

٩- دراسات في الأدب، جوستاف فون غريناوم.

١٠- الذيل والتكملة، ابن عبدالملك المراكشي، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت.

١١- الروض المعطار في خبر الأقطار (صفحة جزيرة الأندلس) للحميري، تحقيق: ليفي بروفنسال، مصر، د. ت.

١٢- شعر أبي البقاء الرندي (٦٠١- ٦٨٤هـ)، جمعه وحققه على أصول مخطوطة مطبوعة د. إنفاذ عطا الله محسن العاني.

١٣- الشعر والشعراء، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، دار صادر- بيروت، مطبعة بيريل، ١٩٠٢.

١٤- طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمعي (ت: ٢٣١هـ)، شرح: محمود محمد شاعر، مطبعة المدني، المؤسسة العربية، مصر، القاهرة، ١٩٦٨.

١٥- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق البغدادي، تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد، مطبعة حجازي، القاهرة، ط٦، ١٩٣٤.

١٦- فصول في الشعر ونقده، شوقي ضيف، منشورات دار المعارف، مصر، ١٩٧١.

١٧- في الأدب الأندلسي، محمد رضوان الداية، ط١، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ٢٠٠٠م.

١٨- قراءات في الشعر الأندلسي، الدكتور صلاح جرار، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠٠٩.

١٩- معجم البلدان، ياقوت الحموي، (ت: ٦٢٦هـ)، بيروت، ١٩٥٧م.
٢٠- نشوء القصة تطورها، محمود تيمور، المطبعة السلفية، مصر، القاهرة، ٢٠١٦.
٢١- نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن محمد المقري التلمساني، تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد، ط١، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٤٩.
٢٢- الوافي في نظم القوافي، أبي البقاء الرندي (النسخة المشرقية).

Translation of Arabic references:

1- Abu al-Baqa al-Rundi, the poet of Andalusian elegy, Omar Radwan al-Dayah, 2nd ed., Beirut, 1396 AH - 1967 AD.

2- Abu al-Baqa al-Rundi, his life and poetry.

3- The National Trend in Contemporary Arabic Poetry, Dr. Abdul Qader Al-Qet, Dar Al-Nahdha Al-Arabiya for Printing and Publishing, Beirut, 2nd ed., 1981.

4- Al-Ihata fi Akhbar Granada, which was prepared by the two ministries, Lisan al-Din Ibn al-Khatib, edited by: Muhammad Abdullah Othman, Al-Khanji Library, Cairo, 1st ed., 1975 AD.

5- Andalusian literature in the era of the Almohads, Hekmat Ali al-Awsi, Al-Khanji edition, Egypt, 1976.

6- Arabic Literature in Andalusia, Abdul Aziz Atiq, Dar Al Nahda Al Arabiya, Beirut, 1976.

7- The Bride's Crown from the Jewels of the Dictionary, Al-Zubaidi, Part Five.

8- History of Arabic Literature, Omar Farroukh.

9- Studies in Literature, Gustav von Grenaum.

10- The tail and the sequel, Ibn Abdul Malik Al-Marrakushi, edited by: Dr. Ihsan Abbas, Dar Al-Thaqafa, Beirut.

11- Al-Rawd Al-Mu'tar fi Khabar Al-Aqtar (Page of the Island of Andalusia) by Al-Himyari, edited by: Levi Provencal, Egypt, no date.

12- Poetry of Abu Al-Baqa Al-Rundi (601-684 AH), collected and edited from printed manuscript originals by Dr. Enfath Atallah Mohsen Al-Ani.

13- Poetry and Poets, Abu Muhammad Abdullah bin Muslim bin Qutaybah Al-Dinawari, Dar Sadir - Beirut, Beryl Press, 1902.

14- Classes of the most famous poets, Muhammad bin Salam Al-Jumai (died: 231 AH), explained by: Mahmoud Muhammad Sha'ir, al-Madani Press, Arab Foundation, Egypt, Cairo, 1968.

15- Al-Umdah in the Beauties of Poetry, its Etiquette and Criticism, Ibn Rasheeq al-Baghdadi, edited by: Muhammad Muhyi Al-Din Abd al-Hamid, Hijazi Press, Cairo, 6th ed., 1934

16- Chapters on poetry and its criticism, Shawqi Dayf, Dar Al-Maaref Publications, Egypt, 1971.

17- In Andalusian Literature, Muhammad Radwan Al-Dayah, 1st ed., Dar Al-Fikr Al-Mu'asir, Beirut, Lebanon, 2000.

18- Readings in Andalusian Poetry, Dr. Salah Jarrar, Dar Al-Masirah for Publishing and Distribution, Amman, 2009.

19- Dictionary of Countries, Yaqut Al-Hamawi, (d. 626 AH), Beirut, 1957.

20- The Emergence of the Story and its Development, Mahmoud Taymour, Al-Salafiya Press, Egypt, Cairo, 2016.

21- Nafh Al-Tayyib fi Ghusn Al-Andalus Al-Ratib, Ahmad bin Muhammad Al-Maqri Al-Tilimsani, edited by: Muhammad Muhyi Al-Din Abdul Hamid, 1st ed., Al-Sa'ada Press, Egypt, 1949.

22- Al-Wafi in the System of Rhymes, by Abu Al-Baqa Al-Rundi (Eastern Edition).